

مؤتمر المستشرقين الدولي

الحديث عن الدورة السادسة والعشرين للمؤتمر،
وقد عُقدت في نيودلهي في يناير ١٩٦٤ .
وما أقدمه هنا ليس تقريراً عن المؤتمر . وإنما
هو عرض سريع لافتي إلى ضآلة اهتمامنا بمؤتمر
يشتغل بقضايا من صميم وجودنا : بالقياس إلى
ما يوجه الغرب إليه من عناية جادة واهتمام بالغ .

obeikandi.com

شرق وغرب

في صيف عام ١٩٥٧ ، كانت الدورة الرابعة والعشرون لمؤتمر المستشرقين في ميونخ .

والتقينا هناك في بهو الجامعة ، جمعاً عجبياً مختلط الألوان والأزياء ، متفاوت الملامح والسمات ، متعدد اللغات واللهجات .

يومها ، تنهت لأول مرة ، إلى أن المؤتمر عقد كل دوراته السابقة في بلاد أوروبية ، أصالة أو بالتبعية :

في القرن الماضي ، عُقدت دوراته الاثنتا عشرة الأولى في :

باريس سنة ١٨٧٣ ، ولندن سنة ١٨٧٤ ، وسانت بيترسبورج سنة ١٨٧٦ ، وفلورنس سنة ١٨٧٨ ، وبرلين سنة ١٨٨١ ، وليدن سنة ١٨٨٣ . وفيينا سنة ١٨٨٦ ، وستوكهلم سنة ١٨٨٩ ، وجنيف سنة ١٨٩٤ ، وروما سنة ١٨٩٩ .

ثم في القرن الحالي ، عُقد المؤتمر في :

هامبورج سنة ١٩٠٢ ، والجزائر - تحت الاحتلال الفرنسي - سنة ١٩٠٥ ، وكوبنهاجن سنة ١٩٠٨ ، وأثينا سنة ١٩١٢ ، وأكسفورد سنة ١٩٢٨ . وليدن سنة ١٩٣١ ، وروما سنة ١٩٣٥ ، وبروكسل سنة ١٩٣٨ ، وباريس سنة ١٩٤٨ ، واستانبول - في تركيا التي انسلخت من الشرق - سنة ١٩٥١ ، وكامبردج سنة ١٩٥٤ ، ثم هذه الدورة في ميونخ سنة ١٩٥٧ .

• • •

وخطر لي أن أسأل لجنة تنظيم المؤتمر ، أن تفسر ما بدا لي من شذوذ الوضع : فاختصاص المؤتمر بالدراسات الشرقية ، يجعل الشرق هو المكان الطبيعي لانهجاده ، كما أن الصفة العلمية لمثل هذا المؤتمر الجليل ، جديرة بأن تعصمه من جموح التعصب لغرب على شرق .

وقيل لى ببساطة :

— ليس الأمر كما تتصورين ، ففهوم الاستشراق هو تخصص علماء غربيين فى الدراسات الشرقية على اختلاف مجالها . وفكرة انعقاده اتجهت أصلاً إلى اجتماع هؤلاء المستشرقين الغربيين ، لتبادل الرأى فى الجديد من بحوث الاستشراق ، فكان من الطبيعى أن يُعقد فى أى بلد أوربى له نشاط فى هذا الميدان ، دون الغفلة عن أهمية اشتراك الشرقيين فيه ، ممن لهم تخصص فى الدراسات التى تهتم المستشرقين .

قلت بصراحة :

— ذلك لا يبنى شذوذ الوضع ، بل لعله يؤكد ، إذ يجعلنا نحن الشرقيين الأصلاء . أشبه بضيوف مدعوين . ثم إنه لا يجيب عن السؤال : ما دامت أعمال المؤتمر خاصة بالشرق ، فلماذا لا يجتمع المستشرقون فى بلد شرقى ؟

وكان الجواب :

— وجهوا الدعوة إلى عقده فى بلدكم إن شئتم ، ولن نتردد فى عرضها على أعضاء المؤتمر فى جلسته العامة بعد يومين .

وأسرعت إلى الزملاء المصريين — وكانوا سبعة أعضاء — أشاورهم فى الأمر ، ففوجئت بأننا لا نملك حق توجيه الدعوة ، دون تفويض من الدولة ، أو استئذانها عن طريق سفارتنا فى « بون » .

واليومان الباقيان ، لموعد الجلسة العامة ، لا تكفيان للاتصال بسفارتنا فى بون ، ثم اتصال السفارة بالقاهرة وانتظار الرد !

واقترحت على أستاذنا الجليل « السيد حسن حسنى عبد الوهاب » أن يدعو المؤتمر إلى عقد دورته التالية فى تونس ، وله تأييدنا المطلق .

ولكن موقفه كان مماثلاً لموقفنا ، وضاعت الفرصة .

وقرر المؤتمر قبول دعوة الوفد السوفييتى ، للانعقاد فى الدورة التالية ، فى موسكو .

وفي موسكو ، سنة ١٩٦٠ ، تكررت المحاولة :

بإدارة العضوان المصريين بالمؤتمر « الأستاذ أمين الخولي ، والأستاذ محمد حسين »
فاتصلا إثر وصولهما بالسيد سفيرنا هناك . واقتنع سيادته بالفكرة فبادر بالكتابة
إلى القاهرة ، يستأذن في توجيه الدعوة .

ومضت فترة انتظار ، حتى جاء الإذن من القاهرة ، بعد أن أفلتت الفرصة
هذه المرة أيضاً :

فأثناء فترة الانتظار ، كان بنو إسرائيل هناك ، يقحمون سياستهم على المؤتمر ،
ويحذرون من عقده في أي بلد عربي ، لكيلا يحال دون اشتراك إسرائيل فيه :
وفي الجلسة العامة الختامية للمؤتمر ، عرضت عليه دعوات من : مصر .
والعراق ، والهند ، وأمريكا .

ووقف مندوب العراق ، فأعلن تنازله عن دعوته ، تأييداً لمصر ، قائلاً :
إن بغداد والقاهرة سواء .

وأدرك الوفد الأمريكي أن التيار مع الشرق ، فتنازل عن دعوته تأييداً للهند ،
على أن تكون الدورة التي بعدها لأمريكا .

ومال « غفوروف : رئيس الدورة » بعيداً عنا ، وقال في حديث خاص ببر
موقفه : إن مصر ليس لديها من العلماء المتخصصين في بحوث التراث الشرق مَن
يمثلونها في الشعب العشر للمؤتمر . والمفروض - في تقديره - أن يكون للدولة الداعية
من يرأسون كل لجانه . وقد يكون لمصر علماء في المصريات ، وربما في الإسلاميات
والإفريقيات ، لكن ماذا عن الدراسات الهندية والقوقازية والإيرانية والعبرية ؟
وأخذت الأصوات على الدعوة الموجهة من مصر والهند ، فنالت الهند الأغلبية .

وبقدر ما اغتبط الأعضاء العرب بنجاح دعوتهم إلى عقد المؤتمر في بلد شرقى ،
وبقدر ما تقبلوا كسب الهند للدورة بشعور الرضى والارتياح ، تقديراً لعراقة
تاريخها وأصالة شريعتها ، واستجابة لما يربطنا بها من أواصر ود متبادل ، وصلات
مادية ومعنوية على مسار التاريخ ،

أقول : بقدر ما تلقى الأعضاء العرب هذا القرار بغبطة وارتياح ، ضاقوا بالتبرير الغريب الذى قدمه رئيس الدورة ، كما أنكروا إقحام السياسة على مؤتمر علمى ، تأثراً بالدعاية الإسرائيلية .

وغاب عن المؤتمر ، وهو يؤخذ بخدعة إسرائيل فى أن عقده ببلد عربى يحرمها قطعاً من الاشتراك فيه ، أن وضعا مماثلا حدث ، ويحتمل أن يحدث ، فى أى مؤتمر دولى يعقد فى أى مكان من الدنيا :

ومؤتمر المستشرقين عقد فى تركيا سنة ١٩٥١ ، ولم تشترك مصر فيه لأسباب سياسية .

وعقد فى ميونخ بألمانيا الغربية سنة ١٩٥٧ . ولم تشترك فيه ألمانيا الشرقية ، لأسباب سياسية كذلك .

ولم تتعطل هذه الدورة أو تلك ، ولا فُتحت ثغرة تهب منها ريح السياسة . وحين تقرر عقده فى الهند ، لم يواجهه القرار باحتمال عدم اشتراك الصين وباكستان فيه ، ولهما من العراقة التاريخية والأصالة فى موضوع المؤتمر ، ما ليس لإسرائيل الطارئة . وهو ما حدث فملاً . . .

ذهبنا إلى الهند ، وقد أنستنا فرحة اللقاء بشعبها الصديق وزيارتنا للبلد العريق الذى أهدى البشرية تراثه الفكرى والروحى من قديم الزمان ، أنستنا هذه الفرحة ما طويانا من ذكرى الموقف فى الدورة السابقة .

لكن واقع الأحداث ما لبث أن ذكرنا بما حاولنا أن ننساه :

التقى الجمع فى قصر المعرفة بنيودلهى ، مختلط الألوان والأزياء ، متفاوت الملامح والسمات ، متعدد اللغات واللهجات :

ألف وبضع مئات من الأعضاء ، وفدوا من شتى أنحاء الدنيا ، يمثلون تسعاً وأربعين دولة شرقية وغربية ، عريقة ومحدثة .

ولم تشترك فيه الصين الشعبية .

وكذلك لم تشترك فيه باكستان .

وفي جلسته الختامية تقرر عقده، سنة ١٩٦٧، في أمريكا، دون أن تُفهم السياسة هذه المرة، بإثارة احتمال عدم اشتراك دول عربية أو الصين الشعبية فيه، والجو السياسي مشحون بنذر مرهضةٍ بمثل هذا الاحتمال.

فلماذا ساغ إقحام إسرائيل على المؤتمر عندما عرضت عليه دعوتنا؟ الجواب عند من حملوا إثم هذا الإقحام، متأثرين بمخدعة مكشوفة، ومحصورين في أفق ضيق لا يقدر التعبه، ولا يحسب حساباً لما وراء هذا الإقحام من سوابق وعواقب خطيرة.

وعلى كل حال، لم يكن غياب الصين وباكستان عن المؤتمر مفاجأة لي، فقد توقعت من قبل أن يحدث مثل هذا في أى مؤتمر دولي يعقد في أى بلد من بلاد الدنيا.

ولكن الذى لم أتوقعه، هو أن أجد كل الرؤساء لأقسام المؤتمر العشرة، لدورة نيودلهي، علماء من غير الهنود!

- قسم الدراسات الإسلامية : يرأسه الدكتور وفريد سميث، من جامعة هارفارد
- قسم الدراسات السامية : يرأسه المستشرق فولكشتاين، من هايدلبرج.
- قسم الدراسات القوقازية : يرأسه المستشرق بوريس بيوتروفسكى، ليننجراد
- قسم الدراسات التركية : يرأسه الدكتور زكى طوجان، من جامعة استانبول
- قسم الدراسات الإيرانية : يرأسه الأستاذ بورداود، من جامعة طهران،
- قسم دراسات جنوب شرقى آسيا : يرأسه الدكتور زويتمولدر، من جاكرتا
- قسم دراسات الشرق الأقصى : يرأسه الدكتور كاكو إينوكى، من جامعة طوكيو
- قسم الدراسات المصر : يرأسه الدكتور عبدالمنعم أبو بكر، جامعة القاهرة
- قسم الدراسات الإفريقية : يرأسه الدكتور بيتشى - من جامعة شرق إفريقيا في كامبالا : أوغنده

وأعجب من هذا، أن قسم الدراسات الهندية، بشعبه الخمس، كان رؤساؤه من غير الهنود :

المستشرق الفرنسى لاكومب، لشعبتي الدين والفلسفة
المستشرق الألماني بون تيمس (توبنجن) لشعبة الدراسات الفيديّة .

المستشرق لودفيج شتير نباخ (نيويورك) لشعبة السنكريستية الكلاسيكية .
المستشرق باشام (من جامعة لندن) لشعبة التاريخ والفن .
المستشرق. هرمان برجر (من هايدلبرج) لشعبة اللغويات الهندية الحديثة .
واكتفت الهند لعلمائها ، بمراكز السكرتارية لكل هذه الأقسام والشعب .
كما اكتفت بعضوين اثنين من الهنود « الدكتور همايون كبير : رئيس الدورة
والدكتور دانديكار : من جامعة بونا » في اللجنة الاستشارية للمؤتمر .
أما باقى مستشاريه العشرين ، فكانوا من غير الهنود .
وقد كان كل رؤساء الأقسام العشرة ، في الدورة الماضية بموسكو ، من علماء
الاتحاد السوفيتي .
وأى دولة ، لا يضيرها إطلاقاً أن تدعو عالماً كبيراً ليرأس قسماً من أقسام
مؤتمر دولي يعقد على أرضها .
ودولية المؤتمر ترتفع به عن هذه النظرة الإقليمية المحدودة ، إلى الأفق الرحب
الذى تتأزر فيه جهود العلماء من مختلف الأقطار وشتى الأجناس ، لخدمة البحث
العلمي الذى تباحى فيه هذه الفوارق .
وأرى الهند بهذا المسلك ، قدّمت مثلاً جديراً بشرقنا العريق ، وشهادةً بمدى
ما بلغت من أريحية وسعة في الأفق ونضج في الشخصية ، يحميها من غرور الادعاء
وسداجة التعصب ، ويؤكد أصالة الروح العلمية فيها ، ميراثاً عتيداً راسخاً تلقته
من ماضى تاريخها الحضارى المجيد .

نحن . . وهم :

من بين ألف وأربعمائة عضو ، يمثلون تسعاً وأربعين دولة من شتى أنحاء الدنيا ، كان هناك تسعة أعضاء يمثلون الوطن العربي الكبير بمختلف أقطاره :
عضوان من العراق ، وآخران من تونس ، وواحد من لبنان ، وأربعة من مصر : أحدهم مدعو بصفته الشخصية ، والثاني موفد من جامعة الدول العربية ، وعضوان يمثلان جامعة عين شمس .

وبعملية حسابية بسيطة ، تقسم عدد أعضاء المؤتمر على الدول المشتركة فيه ، فيكون المعدل المتوسط لكل دولة نحو ثلاثين عضواً .

والوطن العربي ، من الخليج إلى المحيط ، ليس له إلا تسعة أعضاء فقط لا غير .

أى بنسبة عددية أقل من ثلث المعدل المتوسط لدولة واحدة !

ومن بين أربعة وأربعين مراقباً ، أوفدتهم هيئات ثقافية ومراكز إعلامية من مختلف أقطار الأرض ، لم يكن فيهم أى عربي !

وهذا وحده يكفي لتحديد الحيز الذي قررنا باختيارنا أن نشغله هناك ، وبيان الموضوع الذي حددناه لأنفسنا ، في مؤتمر دولي كبير يشغل بقضايا من صميم وجودنا ، وينبش عن عميق جذورنا ، ويكتشف ملامح شخصيتنا عبر التاريخ الطويل .

وهو أيضاً يكفي لمعرفة جواب السؤال الذي كان يملأ رحاب المؤتمر ولو لم ينطق به لسان :

أين نحن وأين هم ؟

أين نحن من حقيقة ذاتنا وماضى خطانا على درب الزمن ؟

وأين هم ، من صميم الشرق وأسرار مزاجه وعقليته وجوهر شخصيته ؟

بل أين نحن مما يقولون عنا ، ومما يذيعون من مطوى تاريخنا وينشرون من

تراثنا ويحفرون عن آثارنا ، وما يرسمون لنا من صور : بعضها صحيح وإن أعوزته الأصاله والمشاركة الفكرية والوجدانية ، وأكثرها زائف عبث به الهوى والتعصب ، أو مسخه سوء الفهم وقصور الإدراك وخطأ التقدير ؟

يبدو أن لاشيء من هذا عندنا بنى بال !

ويدور الصراع هناك حول أخطر قضاياها ، وتحتدم المناقشة حول عقائدنا وعقليتنا الشرقية ، والمزاج النفسى الذى تمثله آثارنا المادية وتراثنا الروحى والعلمى والأدبى ، وما حملته الأجيال المتعاقبة من هذا كله إلى جيلنا المعاصر .

وقوى بمعزل عن ذلك ، لا يعنيه الأمر فى كثير أو قليل ، ولسان حالهم ينطق ببيت لشاعرهم « المتنبى » قاله قبل ألف عام :

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جرّاهها ويختصم
فليقل المستشرقون فينا ما شاءوا .

ولتسهر الدنيا مشغولة بنا ، فى نيودهى أو فى موسكو أو ميونخ ، أو أمريكا .
وليختصم فينا الخلق من شتى الشعوب والأجناس ، ومن مختلف الملل والنحل والمذاهب . . .

ولنم نحن ملء الجفون . . .
تمثلاً بكلمة شاعر ينث سحره فى أجيال متعاقبة منا ، ويترك طابعه فى ذوقها وأثره فى وجدانها . . .

وأعجب العجب ، أننا ندرك هذا الأثر ونعترف به ، ونجحد مع ذلك كل ميراث الماضى فينا ، متأثرين بمفهوم خاطئ للعصرية يروجه فينا من يزعمون أنها انفصال بات عن ماضيها وانبتار حاسم من أصولنا ، وإقامة سد أصم بيننا وبين قد يمنا .

وقد تغلغل ذلك القديم فى أعماقنا رضينا أو كرهنا ، وترك فينا طابعه المميز لنا ، به نفترق عن شعوب أخرى تعاصرنا وليست لها شخصيتنا التى تكونت على تعاقب الدهور وتتابع الأجيال !

أجل ، نجحد ميراث الماضى فينا ، فندع للأجانب الغرباء أن يشغلوا به

ويكشفوا عنه ، حتى إذا حاول محاول منا أن يشارك في شيء من هذا بنشر نص من تراثنا أو بحث في قديمنا ، أخذته الصيحات من كل جانب تنفي انتماءه إلى عصرنا ، وتنكر عليه أن يعوق دفع التطور بالاشتغال بماضٍ ولى وراح . . .

• • •

وتسألون : ماذا قالوا عنا في المؤتمر ؟

وأجيب : لا أدري !

فما عدا الذي قيل في « قسم الدراسات الإسلامية » وهو لا يعدو أن يكون أحد أقسام عشرة للمؤتمر .

فهل يدري سوى من الزملاء العرب شيئاً مما دار في الأقسام التسعة الأخرى ، وفيها بحوث أسبوية وإفريقية وسامية ؟

كلا أيضاً !

فما عدا قسم المصريات الذي كان يرأسه « أستاذنا الدكتور عبد المنعم أبو بكر » أما بقية الزملاء ، فكانوا معي في قسم الدراسات الإسلامية ، وكنا قلة من بين أعضائه الذين قاربوا المائة عدداً ، بينهم عشرة يهود من إسرائيل ، وعشرة من الأمريكان ، ومثلهم من الاتحاد السوفيتي . . .

وفيهم من جاءوا من القاهرة وبيروت ودمشق ممثلين لمؤسسات ثقافية أجنبية ، كالجامعة الأمريكية ومعهد الآثار الفرنسي .

ومنهم من جاء من أستراليا ، وتنجانيقا ، وهولاندا .

وكان من الممكن أن نجتمع نحن الأعضاء الثمانية العرب لتنسيق جهودنا ، لكننا وصلنا إلى نيودلهي ليلة انعقاد المؤتمر ، بعد أن تم تسجيل كل منا في القسم الذي اختاره منفرداً ، دون أن يعرف أسماء زملائه ، والأقسام التي سجلوا فيها ، وموضوعات البحوث التي أعدوها واشتركوا بها .

بل إننا نحن الأربعة المصريين ذهبنا فرادى ، تمثل هيئات أو بالصفة الشخصية ، دون فرصة لقاء أو تفاهم أو تعاون ، في مرحلة الاستعداد .

لأن الدولة لم تشارك في مؤتمر المستشرقين الدولي بوفد يمثلها على مستوى الجمهورية ، وهو الوضع الذي كان يضمن تنسيق جهودنا الفردية وتوجيهها ، على النحو الذي شهدته في كل المؤتمرات التي اشركنا فيها بوفد رسمي ،

فلماذا حُرِّم مؤتمر المستشرقين هذه الصفة الرسمية ، وليس أقل أهمية من باقي المؤتمرات؟ سؤال ظل يشغل بالي ، وأنا أرقب وفود الدول الأخرى متآزرة متفاهمة ، ينزل كل وفد منها في مكان واحد ، ويعقد بين حين وآخر جلسات خاصة لتبادل الرأي وتنسيق الجهد ، فيما يواجهه من مواقف .

والأعضاء العرب كل منهم في حاله ، ولكل منهم برنامج في الرحلة ، مستقلاً عن بقية الزملاء .

لا نلتقي إلا اللقاء العابر في قاعات قصر المؤتمر ، وفي حفلات الاستقبال ، على موائد من تفضلوا بدعوتنا إلى غداء أو عشاء !

* * *

وأخرى ، كانت نتيجة طبيعية لوصولنا ليلة انعقاد المؤتمر ، بعد أن تم إعداد برامجه وتأليف لجانته ، وتحديد الأعضاء الذين يشركون في نشاطه العام خارج حدود اللجان ، دون أن تتاح لنا فرصة في هذا كله ، فما كانت لجنة تنظيم المؤتمر لتجازف باختيار أى عضو منا في هيئات لجانته أو ندواته العلمية التي كانت جزءاً جوهرياً من برنامجه ، وهي لم تتلق منا ، حتى اللحظة الأخيرة ، ما أُلحِت في طلبه من تحديد موعد وصولنا ، وتأکید اشراكنا الفعلي في المؤتمر .

وتابعت رسائلها إلينا ، ونحن لا نملك أن نجيب ، لأن إجراءات سفرنا لم تتم إلا في يوم السفر ذاته ، والمؤتمر على وشك الانعقاد ! باستثناء « الأستاذ الدكتور عبد المنعم أبو بكر » الذي سافر قبل انعقاد المؤتمر بخمسة أيام ، ليتسلم درجة "الدكتوراه الفخرية من جامعة نيودلهي" فأخذ مكانه عضواً في اللجنة الاستشارية للمؤتمر ، ورئيساً لقسم الدراسات المصرية .

* * *

وكان في برنامج المؤتمر ندوتان ثقافيتان :

إحدهما عن "دور دراسات الاستشراق في الإنسانيات" برياسة الأستاذ
«همايون كبير» رئيس الدورة .

والأخرى عن "التعديلات الحديثة في تشريع الأحوال الشخصية للمسلمين"
برياسة «الدكتور شري شاجلا وزير التعليم الهندي»

اشترك فيها الأساتذة «مولانا سعيد أحمد أكبر أبادي ، وشيري فضل الرحمن ،
وخواجه محمد أحمد ، والدكتور حسين ناصر (إيران) والسفير التركي سيف الله
أسين ، والمستشرق أندرسن .

وقدّرت لجنة التنظيم أهمية اشترك الدول العربية في هذه الندوة ، فدعت سفيرنا
بالهند «السيد أحمد حسن الفقي» ليتحدث عن تشريع الأحوال الشخصية بمصر ،
وما أدخل عليه من تعديلات .

وكان محض اتفاق أن يكون السيد السفير متصلاً بهذا الموضوع الدقيق ، وعلى
دراية به ، بحكم نشأته في بيت دين ، مما أتاح له أن يدرس تشريع الأحوال الشخصية
في نصوصه المعدلة بقانون بعد قانون .

ولولا هذا الاتفاق المحض ، لما كان من المستطاع أن تشترك مصر ، بسفيرها ،
في الندوة ، ولتركتنا المجال كله للهند وإيران وتركيا والمستشرق أندرسون ، دون أن
يسمع أي صوتٍ لعربي مسلم !

* * *

وكان في برنامج المؤتمر أيضاً ، إقامة معرض عام لنوادير المخطوطات واللخائر
التي نُشرت من تراث الشرق والإسلام ، والمؤلفات المتصلة ببحوث الاستشراق .
اشتركت فيه وفود وهيئات شتى ، من شرق وغرب ، ولم يشترك فيه أي قطر
عربي !

من الهند : اشتركت ثلاث هيئات أكاديمية ، وسبعة مراكز ثقافية ، وخمس
دور للنشر .

ومن ألمانيا ، في الشمال الأوربي ، جاءت معروضات من مراكز الاستشراق .

ومن أقصى الغرب الأمريكي ، جاءت معروضات مركز البحوث اللغوية في « واشنطن » واتحاد الدراسات الآسيوية في « ميتشيجان » .

ومن الاتحاد السوفيتي ، جاءت معروضات مما نشرته معاهد الاستشراق في موسكو ولينينجراد وطشقند ، برعاية المجمع العلمي السوفيتي .

.

ونحن . . . لسنا هناك .

ما من أثرٍ في المعرض ، يعلن عن وجود الشرق العربي في الميدان ، فيما عدا ما قدمته بعض دور النشر الهندية من مترجمات أردية لبعض مؤلفاتنا في الإسلام^(١)!

وكل ما في المعرض متصل بصميم وجودنا .

وفي هذا أيضاً ، سهر الخلق مشغولين بنا ، ونمنا نحن ملء الجفون ، مخدرين برقية نفثها ذلك « المتنبى » في وجداننا منذ أكثر من ألف عام :

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراًها ويختصم !

(١) كانت مفاجأة لي ، أن أرى هناك كتابين لي ، من مجموعة تراجمي لسيدات بيت النبوة : "السيدة زينب ، والسيدة سكينة بنت الحسين" معروضين هناك في ترجمتهما الأردنية والفارسية .

وبلغ من عزلتنا الثقافية إن لم أكن رأيتهما من قبل !

تجربة وامتحان :

كانت هذه الدورة لمؤتمر المستشرقين الدولي ، أول دورة له تعقد في بلد شرقي حر .

تجربة أولى واجهتها الهند ، لتحتمل عنها الصعب . . .

والمؤتمر قديم وعريق ، يحمل تاريخه تجارب خمس وعشرين دورة سابقة ، تنقل فيها بين عواصم أوروبا ، وأغنت رصيده خبرات وجهود لدول تتنافس على المراكز القيادية لعالم اليوم .

وبهذا الرصيد اتجه المؤتمر إلى الهند ، وهو يرقب مصير التجربة بحساسية بالغة ، واستعداد يقظ لالتقاط أخطأ وتسجيل أهون الأخطاء .

وذهب ممثلو الدول التسع والأربعين ، ومعهم مائة وأربعة وأربعون من المراقبين ، موفدين من شتى هيئات الثقافة ومراكز الإعلام . ومن هؤلاء كثرة غالبية تمركزت بالمؤتمرات الدولية وشهدت دورات سابقة لمؤتمر المستشرقين ، في دول غربية عظمى .

ذهبوا بعيون مفتوحة وحس نقدي مرهف ، يسيطر عليهم جو التطلع والتربق ، وكأنهم مدعوون لشهود امتحان مثير ، يؤديه هذا الشرق أمام الغرب ، على مرأى ومسمع من ذلك الجمع الحاشد ، تتنازع أفرادها عاطفتان مختلفتان :

الشرقيون منهم يواجهون التجربة بوجدان مشترك ، يخفق بلهفة الرجاء ويتوهج بحماسة التجاوب .

والغربيون يغلب عليهم شعور من الزهو والتفوق ، توارى خلف قناع من المداراة وبرود اللامبالاة .

وبدوا كأنهم جميعاً يقومون بدور المراقبين .

وبدونا كأننا جميعاً ، نؤدي الامتحان مع الهند ، وإن احتملت وحدها العبء ، واختيرت لتمثل الشرق كله في الموقف الصعب .

وكانت قد استعدت له منذ وقت غير قصير :

ففي منتصف سنة ١٩٦٢ ، قبل انعقاده دورة المؤتمر بعام ونصف عام كانت ، لجنة التنظيم قد ألفت ، وبدأت تعلن عن وجودها على المستوى العالمي ، بتوجيه الدعوات إلى الهيئات والأشخاص المشتغلين بآثار الشرق .

ومن ذلك الوقت ، تابعت نشرات اللجنة ، معلنة عن الجهد المبذول استعداداً للدورة .

وقبل أن يحل موعد المؤتمر بنصف عام ، كان كلُّ مدعوٍ منا قد حدد القسم الذي اختاره ، وعين البحث الذي يعده ، وعرف اسم عضو لجنة التنظيم ، المشرف على مكاتبات القسم .

وُجد منتصف شهر أكتوبر من سنة ١٩٦٣ ، آخر موعدٍ لتلقى خلاصات البحوث المعدة للمؤتمر .

وفي شهر نوفمبر ، كان البرنامج العام قد وزع على الأعضاء في أنحاء الدنيا مرفقاً ببيان دقيق عن الفنادق ومستوياتها وأسعارها . ولائحة الجمارك الهندية ، وأسعار العملات المختلفة في التبادل الرسمي ، وجو الهند في فترة انعقاد المؤتمر ، سواء في مقره بنيودلهي ، أو في المناطق السياحية بالشمال والجنوب .

ومع البيان ، بطاقتان يضعهما العضو على حقائبه ، ليكون بهما موضع عناية وتكريم .

وكان هذا الاستعداد كفيلاً بأن يبعث الطمأنينة إلى نفوسنا ، نحن الشرقيين الذين نواجه مع الهند تجربة الامتحان .

ومن المطار تلقانا مندوبو المؤتمر ، ومروا بنا - في طريقنا إلى الفنادق المحجوزة لنا - على مقر انعقاد المؤتمر لنسجل حضورنا ونستلم حافظة الأوراق الخاصة بكل منا .

وكانت مفاجأة لأكثرنا ، أن نجد في « نيودلهي » قصرًا خاصًا بالمؤتمرات . هو « قصر المعرفة : Vigyan Bhavan » بُني على أحدث طراز ، وزُوِّد بكل ما يمكن أن يخطر على البال من وسائل العمل والراحة .

ففي بهو الاستقبال أماكن منظمة لخدمة الأعضاء موزعين عليها حسب أرقام

عضويتهم ، بحيث يعرف كل عضو أين يجد ما يصل إليه من بريد ودعوات ومطبوعات ، والنشرات الدورية للمؤتمر .

ويفضى البهو ، من الأمام ، إلى القاعة الكبرى الرئيسية ، ويفضى من الجانبين إلى مكاتب البريد والبرق والتليفون والمصرف ، وقاعات الاستراحة ، والمكاتب المخصصة لرؤساء اللجان وسكرتارية المؤتمر . وفي الدور العلوى قاعات رحبة ، أعدت لتكون معارض للكتب ، والمخطوطات ، والفنون ، والآثار ، ونماذج مختارة للصناعات الهندية .

وفي الدور الأرضى ، قاعة كبرى فخمة للطعام ، تتسع لكل هذا الجمع ، ويقوم بالخدمة فيها جهاز مدرب على أعلى مستوى .

وهنا وهناك ، ينتشر الأداء والتراجمة يحملون على صدورهم شارة مميزة ، ويؤدون عملهم بروح عالية ويقظة تامة . وفيهم سيدات وآنسات ، فى زيهن القومى ، يضيفين على المؤتمر جو الشرق الأصيل العريق ، بكل سحره وسره .

وعلمتُ أن هذا الجهاز الإدارى كله جهاز دائم ، أعنى أن أفراداه يعملون فى قصر المعرفة ، المخصص للمؤتمرات ، بصفة مستمرة . على استعداد متصل لاستقبال الوفود لأى مؤتمر يعقد فى عاصمة الهند ، دون أن يترك الأمر لفضى الارتجال وحيرة البحث عن مرافقين وأدلاء وموظفين ، يلتقون من هنا وهناك بصفة عارضة مؤقتة ، ويكلفون بالعمل الطارئ بالتدريب أو إعداد ، ودون اختبار لمدى صلاحيتهم لاستقبال الوفود ، وأهليتهم للمهمة الخطيرة ، من حيث هم ممثلون لبلدهم أمناء على سمعتها ، بسلوكهم وثقافتهم ، وخبرتهم على المستوى الدولى .

تلك كانت الجولة الأولى للمؤتمر .

وقفت حيا لها أسترجع ذكري مؤتمرات لنا ، تعقد فى أماكن مستعارة ، فتتقم على الجامعات أو دور الهيئات الثقافية أو قاعات المجالس المحلية .

ويندب لها موظفون ، معارون كذلك ، من شتى الدواوين ، ومجموعون جمعاً لماً لقضاء المهمة الطارئة على أى وجه ومستوى !

وتتابعت الجولات واحدة إثر أخرى . والهند تواجهها بكل ما في طاقتها من جهد سخى باذل ، عن إدراك عميق لأهمية الموقف ، ووعى كامل لمسئولته .

« * * * »

وأصبحنا يوم افتتاح المؤتمر ، وكان المقرر أن يفتتحه الرئيس « الدكتور رادا كريشنان » .

وتوقعنا أن تكون كلمته مجرد تحية رسمية تقليدية ، يرحب فيها بضيوف الهند ويرجو لهم النجاح وطيب المقام . وقدّرنا لكلمته خمس دقائق أو عشرًا . . . لكن الرئيس اشترك في المؤتمر بمحاضرة خصبة ، ألقاها نيابة عنه « الأستاذ همايون كبير رئيس الدورة » واستغرقت ساعة كاملة .

بحث في التاريخ الحضاري والروحي للهند ، ومبرأها منه عبر آلاف من السنين ، تفاعل خلالها مع ما طرأ على الهند من حضارات وافدة ، مطلقاً بنا ، في محاضراته ، على الأفق الإنساني الرحب ، حيث تلتقى جهود البشرية من مختلف الأجناس وعلى تتابع العصور ، وتغدو تراثاً مشتركاً للإنسان .

وحيث تلتقى الروافد من شتى المناطق ، تصب في النبع الكبير خلاصة تجارب الشعوب العريقة في الحضارة ، والجديدة المحدثه .

وكان « الدكتور ، الرئيس رادا كريشنان » في محاضراته ، فيلسوفاً معلماً وشاعراً ملهماً ، تتجلى فكرته في فيض من نور الإيمان بإنسانية البشر ، وتحايله رؤى باهرة لعالم تتاحى فيه الفوارق بينهم ، فيرتل فينا « نشيد الإنسان » في خشوع ومهابة وجلال :

تقابلوا معاً ، وتحادثوا معاً

ولعل عقولكم تلتقى

في تفاهم ومودة وقربى

ولكن أفكاركم وعواطفكم وأمانى قلوبكم

نابعة من ضمير الإنسان

ومتجهة إلى الخير العام

وعلى الطريق ، سيروا معاً

نحو وحدة البشر »

وفي نشوة الانفعال بالنشيد المثير ، توجهنا إلى القصر الجمهورى حيث كان في استقبالنا السيد « الدكتور ذاكر حسين نائب رئيس الجمهورية » - ورئيسها بعد راداكريشنان - ليتدارس ، معنا قضايا الاستشرق ، ثم يودعنا على موعد للقاء معه في بيته ، ثم في دار سفيرنا بالهند ، لتتابع الحديث في موضوع الفكر الإسلامى المعاصر ، وماذا يستطيع أن يقدمه إلى الإنسانية من قيم عليا ، في العدل الاجتماعى والأخوة البشرية .

وعدنا إلى قصر المؤتمر ، لنتلقى في جلسة المساء بالرئيس نهرى ، وكانت الأنباء عن حالته الصحية قد شغلتنا ، فتوقعنا أن يعتذر .

لكنه أصر على لقائنا ، ليحاضرنا في الأحداث الكبرى التى تشغل عالم اليوم ، ويهيب بالعلماء أن يجاهدوا لإنقاذ العالم مما يكابده من حدة التوتر ، وما يروعه من مآسى التفرقة العنصرية والصراع الدامى بين المذاهب والعقائد .

ونسى « الرئيس نهرى » صحته وشواغله ، لكى يحمل نصيبه من العبء الذى اضطلمت به الهند لينجح المؤتمر ، وجاء يعلن دعاء السلام ، وينيط بالعلماء رجاء كبيراً فى تحرير الإنسان من شر الأثرة ولعنة الحقد والتعصب ، ونكبة تسخير العلم للتخريب والتدمير .

وفتحت الهند قلبها الكبير لضيوفها ، فكان لشارة المؤتمر على صدورهم أثر يشبه السحر ، فى كل من لقينا من عامة الشعب .

وبدا كأن كل فرد هناك ، من رئيس الجمهورية إلى أبسط عامل ، يعد نفسه مسئولاً عن نجاح المؤتمر .
وانعكس الوضع :

فلم يعد الشرق يودى امتحاناً أمام هذا المؤتمر للمستشرقين ، وإنما صار المؤتمر نفسه فى موضع الامتحان .

ليثبت طاقته على التسامى بالعلم إلى أفقه الإنسانى متجرداً من ضغائن العصبية .
وليكشف عن مدى استجابته لنشيد الإنسان ودعاء السلام .

وكان امتحاناً صعباً ، علينا وعليهم :

علينا نحن الشرقيين الذين دخلنا المؤتمر بحساسية مرهفة نحو التجربة الأولى التي فرضت علينا أن نقف موقف الاختبار .

وعلى الغربيين الذين جاءوا مزهوين بعقدة التفوق التي فرضت عليهم أن يقفوا موقف الرقيب الفاحص .

وقد انفض المؤتمر ، وأقصى ما وصل إليه من نجاح في التسامى إلى الأفق الإنساني . أن بذل جهد المحاولة في حدود طاقته ، دون أن يبلغ بها المدى المرجو من التجرد .

ولا أبرئ نفسي من قصور ، فقد أعياني في الواقع أن أنسى انتمائي إلى الشرق . ومعدرة إلى ذكرى الدكتور رادا كريشنان والرئيس نهرو ، والرئيس ذاكر حسين فإزلت حتى اليوم أكتب ما أكتب عن المؤتمر فأقول :

شرق وغرب . . . ونحن وهم !

بعض ما قالوا هناك :

قلت إن تجربة انعقاد المؤتمر للمرة الأولى في بلد شرقي حر ، قد واجهتها الهند بأقصى ما في طاقتها من جهد سخى ، عن إدراك عميق لأهمية الموقف ، ووعى كامل لمسئولته .

دون أن أعنى ، من قريب أو بعيد ، أن نجاح الدورة من حيث دقة التنظيم وكفاية الاستعداد وكرم البذل ، يدخل فيه الحكم بنجاحه من الوجهة العلمية الموضوعية .

فلهذا حديث آخر ، أحاول أن أعرض بجانب منه ، في نطاق قسم الدراسات الإسلامية الذي اشركت فيه وشهدت جلساته وأصغيت إلى ما ألقى فيه من كلمات ، وقرأت ما قدم إليه من بحوث .

راجية مع هذا ألا يؤخذ حديثي عنه مأخذ التعميم ، وهو لا يعدو أن يكون قسماً واحداً من أقسام عشرة ، لا علم لي بما جرى في غيره منها .

سجلت قائمة البحوث المقدمة إلى قسم الدراسات الإسلامية خمسة وتسعين بحثاً . وهو أعلى رقم في الأقسام كلها ، باستثناء قسم الدراسات الهندية .

ولم ندر في الواقع كيف يمكن أن تتسع جلسات عشر ، لتقديم خلاصات لأكثر من تسعين بحثاً ، مهما تبلغ من تركيز وإيجاز . حتى أعلن رئيس القسم المستشرق الأمريكي «الدكتور ولفريد سميث» في مفتح الجلسة الأولى ، أنه لا يجد أمام ضخامة عدد البحوث وضيق الوقت ، إلا أن يحدد لكل عضو منا ربع ساعة فقط لتقديم خلاصة بحثه ، ومناقشته فيه .

• • •

وكان سؤال : ماذا لو استنفد المتحدث ربع الساعة ، في إلقاء كلمته ؟ وأجاب « الدكتور سميث » ببساطة وحسم : إذن لا تكون مناقشة .

ولعل هذا يعطى فكرة عن حدود المجال الضيق المتاح للمناقشة ، إذا قدرنا أهميتها ، وقدرنا كذلك ما لا بد أن يكون من تفاوت المستوى بين البحوث ، وما هي

مظنة التعرض له من خطأ أو قصور أو انحراف ، في مجال دقيق صعب كالدراسات الإسلامية .

وأدخل في صميم الموضوع ، لأعرض بعض ما قالوا هناك .
 وأتجاوز عمداً عن بحوث ستة قدمها يهود من إسرائيل ، جاءوا إلى المؤتمر ، من أورشليم وتل أبيب ليتحدثوا بكل جرأة عن الإسلام والمسلمين ، مستبيحين حرمة تاريخنا ، على امتداد الزمان والمكان ، كما استباحوا حمانا في المناطق المغتصبة من بلاد العرب .

• • •

كان الموضوع الذي شغلنا هناك ، في حدود ما أعرف ، هو « القرآن الكريم » سواء في الجلسات الرسمية للدراسات الإسلامية ، أو في المجالس والندوات الخاصة والمحادثات الحرة التي أتيح لي أن أشارك فيها .

وقد يكون غيرى من الزملاء العرب شُغلوا بموضوعات أخرى ، لكنى ما شهدت مجلساً هناك إلا كان هذا الموضوع هو مدار حديثنا ومناظ اهتمامنا :

المستشرقون يعينهم أن يتبعوا ما يظهر من جديد في مجال تفسير القرآن ، ليعرفوا كيف يفهم المسلمون اليوم كتاب الإسلام .

والمسلمون من غير العرب ، يعينهم أن يدركوا قيمة التراجم القرآنية التي يقرأون فيها كتاب دينهم ، بغير لغته التي نزل بها .

• • •

والحق أن الموضوع لم يُقدم فيه رسمياً سوى عشرة بحوث ، هي :
 - القرآن الكريم ومشكلة الترادف اللغوي ، وهو الموضوع الذي اشتركتُ به رسمياً في المؤتمر .

- الترجمة الإنجليزية للقرآن ، والحروف الغامضة في فواتح السور : قدمها الدكتور هاشم أمير على ، من نيودلهي .

- بحث في التفسير الحديث : قدمه أرنولد ليو ، من كلية سان جوزيف في بيروت .

— الكفر والشرك والطغيان ، في القرآن : قلمه المستشرق « ت ب إيرفينج » من الولايات المتحدة .

— التقدم الإنساني والقيم القرآنية : للأستاذ شرف الدين عبد الصمد . من عليكرة .

— فكرة الألوهية في القرآن ، في ضوء شروح مولانا آزاد : قدمه الأستاذ محمد مرتضى صديقي ، من حيدر آباد^(١) .

لكن « القرآن الكريم » مع ذلك ، فرض علينا أهميته واستأثر بالقدر الأكبر من تفكيرنا ومناقشاتنا .

وإذا كانت الموضوعات الأخرى قد أخذت نصيبها من الاهتمام في الجلسات الرسمية ، فقد بقي الوقت الحر لحلقات بحث ومدارسة ، يجذب أكثر الأعضاء حول هذا الموضوع الذي يستأثر باهتمامهم .

ذكرت أن قائمة البحوث المقدمة إلى قسم الدراسات الإسلامية سجلت خمسة وتسعين بحثاً ، وهو أعلى رقم في الأقسام كلها باستثناء الدراسات الهندية .

وأحاول هنا أن أعرض صورة مجملتها لما كان هناك ، عن طريق ما قدمه « الدكتور هاشم أمير على » من كلام في فواتح السور ، وترجمة إنجليزية لبعض سور من القرآن الكريم . لتخصصي في الموضوع من ناحية ، ولعلمي بما للدكتور هاشم من نفوذ بالغ ، لدى من يتصلون عن طريقه بكتاب الإسلام ، في اللغة الإنجليزية .

وكانت دعاية واسعة قد سبقت الجلسة التي تحدث فيها ، وقدمته إلينا حجة في القرآن الكريم باللغة الإنجليزية . وتلقى كل الأعضاء هدية من الدكتور قامت

(١) وجاء يهود من تل أبيب ، ومن أورشليم ، يتحدثون عن مثل :

— عبد القادر الجزائري وعبد الكريم وأثر الإسلام في حركتهما .

— الحياة اليهودية في كريت في ظل الحكم الإسلامي .

— موالى الخلفاء العباسيين والحدود الإسلامية

— دراسة للعربية الوسطى من النصوص المسيحية . .

سكرتارية القسم بتوزيعها علينا : نسخة من كتاب ألفه ، في ترجمة وتفسير خمس عشرة سورة من « جزء عم » .

• • •

وعنوان مقاله ، المقدم إلى المؤتمر بالإنجليزية :

The Mysterious Letters of Quran.

وقد وُزِعَ علينا قبل إلقائه ، خمس ورقات باللغة الإنجليزية ظنننا خلاصة للبحث ، لكنني لم أجد بينها غير ورقة واحدة تتصل بالموضوع ، أما الأربع الباقيات فإعلان عن ترجمته الإنجليزية لسور من القرآن ، مع مقتطفات منقولة من تقرّيب لهذه الترجمة في صحف ومجلات هندية وإنجليزية وأمريكية .

والورقة الوحيدة المكتوبة عن فواتح السور ، اقتطع منها هامشٌ للتعريف بالدكتور هاشم أمير على ، نقرأ فيه أنه :

« نال درجة الدكتوراة في الإسلاميات من جامعة كورنيل

وحضر حلقة الدراسة الإسلامية في بريستون سنة ١٩٥٤

وهو صاحب ترجمة القرآن التي نشرت في نيودلهي ولندن ونيويورك ، بعنوان قرآن الطالب "The Student's Quran" .

وعميد معهد الدراسات الإسلامية العليا ، للجمعية المالية الإسلامية في نيودلهي . »

وإنما أنقل كل هذا ، قصداً إلى بيان مركز الباحث ، ونوع ثقافته ، ومدى شهرته ، واهتمام دور النشر به ، لكي يعرف قومي ما يتاح لكلامه عن كتاب الإسلام ، من ذبوع وانتشار .

وقد قرأت ورقته عن فواتح السور ، قبل أن يلقي كلمته .

وكل ما فيها ، مقدمة تقول إن القرآن يستهل بحروف "الم" - يعني سورة البقرة - ثم تتابع سور عددها تسع وعشرون مفتوحة بهذه الحروف الغامضة التي أعيا القدامى أن يفهموها حتى اهتدى الدكتور هاشم إلى حل هذه المشكلة التي لبثت تنتظره أربعة عشر قرناً بغير حل .

ثم تُتقدم الورقة الحلّ في فقرة واحدة تقول ما ترجمته :

إن هذه الفواتح الغامضة جاءت متلوة بسياق المخاطب في كل السور بلا استثناء ومن ثم يمكن فهمها على أنها نداء للنبي . بحيث لو وضعنا « يا محمد O. Muhammed » مكان كل هذه الفواتح لانجلي الموقف وحُلت المشكلة .

ويستطرد الدكتور هاشم في ورقته قائلاً : إن هذه الفواتح تشترك في ظواهر منها :
أنها جميعاً بلا استثناء في سياق المخاطب .

وهي جميعاً لا تؤثر على معنى النص فيما يليها .

وأن خمساً وعشرين سورة من التسع والعشرين المفتحة بهذه الحروف الغامضة ، نزلت في العهد المكي المتأخر حين كان النبي منبوذاً Ostracised من قومه وفي حاجة شديدة إلى التأييد .

وأضاف : إنه لا حاجة بنا إلى الوقوف عند الدلالة الأصلية لهذه الحروف ما دامت لا تؤثر على فهمنا للسياق بعدها ، بإحلال « يا محمد » مكانها ، ولا تعطى أي مغزى آخر وراء ذلك ، والنبي لم يكشف لأصحابه عن حلها ، ربما عن تواضع !

* * *

ووقفتُ عند الدليل الذي قدمه « الدكتور هاشم » وهو أن كل السور المبدوءة بهذه الحروف الغامضة ، تأتي الآيات التالية للفواتح فيها في سياق الخطاب — لمحمد صلى الله عليه وسلم — ثم رحت أسترجع في ذهني ، الآيات الأولى من سور :

العنكبوت ، الروم ، لقمان ، ص ، غافر ، الزخرف ، الجاثية ، الأحقاف ، ق ، يونس . فإذا سياق الآيات . للفواتح فيها ، ليس خطاباً مباشراً للنبي صلى الله عليه وسلم . اللهم إلا أن يعنى السياق العام .

والقرآن كله ، لا هذه السور وحدها ، قد نزل وحيّاً إلى المصطفى ، وخطاباً له . وما قاله عن نزول خمس وعشرين سورة من ذوات الفواتح ، في أواخر العهد المكي ، والأربع الباقيات مدنيات ، ينتقض كذلك ، إذا ذكرنا أن عدد السور المكية كلها في المصحف ، سبع وثمانون سورة : فإذا اعتبرنا المتأخر منها ما بعد السبعين ، لم نجد في السور المفتحة بالحروف غير أربع فقط مما يمكن عده من

متأخر السور المكية . وهذه الأربع على التحديد: "إبراهيم ، والسجدة ، والروم ، والعنكبوت ."

أما باقى السور المكية المفتتحة بالحروف المقطعة ، فنها ما يقع فى ترتيب النزول ، فى الثلث الأول من العهد المكي . بل منها كذلك سورة القلم وقد نزلت آياتها التسع والأربعون الأولى ، بعد سورة العلق مباشرة ، أول سورة نزل بها الوحي !

• • •

واستحضرتُ ذلك كله فى بالى ، استعداداً لمناقشة الدكتور هاشم فيه بعد أن قام بلى كلمته ، وفى حسابى أنها لن تستغرق أكثر من خمس دقائق ، إذا افترضنا أنه بحيث يقرأ كل ما جاء فى ورقته المكتوبة عن فواتح السور . لكنه أمضى عشر دقائق يزكى ترجمته للقرآن ، ويحصى ما سبقها من تراجم بالإنجليزية ، مؤكداً أن ترجمته تفضلها جميعاً . ثم استفند الدقائق الخمس الباقية له ، فى كلمة عن فواتح السور لم يضيف بها جديداً إلى ما قرأناه عنها فى ورقته . وهكذا لم يترك لنا دقيقة لمناقشته .

وانتظرت حتى انتهت الجلسة ، فعرضتُ له بالسؤال عما قال فى فواتح السور ، فكانت المفاجأة أن التمس منى محادثته بالإنجليزية لأنه لا يعرف العربية ! سألته : تقول إنك جئت بأفضل ترجمة للقرآن الكريم ، وأنت لا تعرف لغته ؟ فتبسم ضاحكاً من قولى وهو يسأل بدوره :

— وهل القرآن للعرب وحدهم !

أجبت : كلا ، بالتأكيد . ولكن أن ترجمه وأنت لا تفقه لغته ، أمر غريب حقاً !

قال : فلنؤجل هذه المناقشة ، إلى أن تطلعنى على الترجمة ، لأرى ما إذا كنت تنكرين منها شيئاً .

وقلت على الفور :

قد فعلت ، ألقىت نظرة سريعة على ترجمتك التى أهديت إلى كل الأعضاء قبل الجلسة ، وأنكرت منها الكثير .

فسألنى : مثل ماذا ؟

وأجبت : مثل ترجمتك للكافرين ، بدوى الإيمان القليل : With little faith وترجمتك « لا ريب فيه » : لا صدع ولا ثغرة ، وترجمتك « الذين يؤمنون بالغيب » بالذين يعتقدون بلا ريب
ولم يبد عليه أنه يفهمنى .
ولم يبد لى أن المضى فى مناقشته يجدى !

• • •

وأدع ترجمته للقرآن إلى حين ، لأقول هنا إن مقال الدكتور هاشم ، وعشرات أخرى من كلمات الأعضاء ، مرت بغير مناقشة .

والمؤتمر بمثل هذا الوضع الذى حشد فى جلسات عشر ، خلاصات لما قدمه أعضاؤه الذين قاربوا المائة عدداً ، أضاع الكثير من جوهر أهميته بإهدار فرصة المناقشة التى تمحص ما يعرض من آراء ، فنصحح أو نستدرك عليها ، أو نضيف إليها مما لدى الدارسين المتخصصين .

وإلا فأى جدوى فى أن نجلس مستمعين لما يلقى علينا ، دون أن نملك سؤالاً ولا ردّاً ؟

ولقد كان أمام القسم ، بحثان على طرفى تقيض :

بجئى فى « القرآن الكريم ومشكلة الترادف اللغوى » فى ضوء التفسير البياني ، وواضح فيه أننا لا نستطيع أن نفسر اللفظ القرآنى بآخر مما يبدو مرادفاً له ، دون أن يفقد اللفظ سر دلالاته فى سياقه القرآنى ببيانه المعجز .

وفى الطرف المقابل ، وقف الدكتور هاشم يعلن غبطته وزهوه بتقديم أفضل ترجمة لإنجليزية للقرآن . ثم نفاجاً بأنه يجهل العربية ، ويعيه أن يفهم من يحاطبها!

وما أبعد ما بين الموقفين :

يعينى ، والعربية لغتى والنص القرآنى موضوع تخصصى ، أن أفسر لفظاً منه بآخر من مادته ، أو بمرادف له فى معاجمنا اللغوية .

ويهن على الدكتور هاشم ، أن يترجم هذا النص إلى الإنجليزية ، وليس له أدنى معرفة بلغة العرآن !

وموقفه ، قد يبدو في ظاهره غير شاذ ، فليس الدكتور هاشم بأول من نقل نصاً من لغة لا يعرفها ، مترجماً إلى لغة يجيدها . والغرب قد اتصل بتراث أرسطو عن طريق التراجم العربية له ، وأكثر ما لدينا من نصوص إغريقية وهيروغليفيه ، قد نقل إلينا عن طريق تراجمها إلى اللغات الحديثة .

لكن الشذوذ بدا في أوج حدثه ، تجاه الذى عرضته على المؤتمر — فى نفس الجلسة الذى ألقى فيها الدكتور هاشم كلمته — من دراسة لموقف البيان القرآنى من الترادف اللغوى !

ومرت كلمة الدكتور فى القرآن الكريم بغير مناقشة .

لكن التناقض بين الموقفين ، أثار موجة من القلق والحيرة والتساؤل ، اندفعت من قاعة الجلسة ، إلى خارج جدران قصر المؤتمر « فيجيان بهافان » فشغلنا حيث التقينا ، فدار الحديث فى كل مجالسنا الخاصة ، حول ترجمة القرآن إلى لغة أجنبية . ولم نختلف على أن الترجمة لا تكون إلا لمعانى القرآن ، كما لم نختلف على أن أى ترجمة لهذه المعانى ، مهما تبلغ من الدقة والصحة ، لا يمكن أن تجلو أسرار دلالاته فى إعجازه البيانى .

إنما الذى أهمانا حقاً ، أن جمهرة الذين قاموا بالترجمة ممن لا يؤمنون عليها من غير المسلمين ، كانت ترجماتهم تقابل بالخر ، وتُتلقى بالحرص اليقظ لما يُظن بهم من انحراف وتعصب .

وهذه ترجمة يقدمها شرق مسلم ، ليس مظنة اتهام . . .

فإذا كان يجهل العربية ، فإنه يحتكم فى توجيه النص القرآنى بما يأخذ عن الترجمات الإنجليزية . ويقدمه بهذا الوضع الشاذ ، إلى مئات الملايين من المسلمين ، غير العرب ، ليأخذوا عنه تأويل كتاب دينهم ، ويحدد فهمهم له !

والدكتور هاشم ليس مترجماً مسلماً فحسب ، ولكنه يتجاوز الترجمة إلى التفسير ، ومن ثم يعم خطؤه وينتشر ، ويؤثر فى أجيال من القراء ممن يطالعون هذا

التفسير المطبوع في أكبر دور للنشر بلندن ونيويورك ونيودلهي ، والموزع على أوسع نطاق . .

ولنأخذ مثلاً : تفسيره لكلمة الوحي الأولى « اقرأ » في آية العلق :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق » .

بدأ الدكتور هاشم فترجمها بلفظ Call ، أى ادعُ ونادِ . ثم مضى يفسرها فقال ما ترجمته الحرفية :

« إن فعل الأمر اقرأ Call ، يجانس من قرب الكلمة الإنجليزية صاح "Cry" وهي هنا كأنها قرع الطبل . وتحمل الكلمة أيضاً معانى الأمر : بالدعاء ، والإعلان ، والإشهار ، والإعلام ، والتعليم ، والتبشير » .

وقد يبدو عجباً أن المفسر لم يجد وهو يسوق كل هذا الحشد من التأويلات للفظ "اقرأ" مكاناً لما يقابلها بالإنجليزية Read وهو أول لفظ يحظر على البال في ترجمة ، اقرأ .

ولكن العجب يزول ، حين نمضى معه فنطالع ما جاء به من توجيه لآية الوحي الأولى فيما ساق من تأويلات .

فى الفقرة التالية مباشرة ، ذكر أن هذا الأمر بالصياح "Cry" موجود فى « العهد القديم » خطاباً للنبي أشعيا ، قبل القرآن بنحو ثلاثة عشر قرناً .

واستشهد لهذا بترجمة لآية من سفر أشعيا ، رجعت إليها فى « العهد القديم » فإذا نصها فى أول الإصحاح الثامن والخمسين من السفر :

« نادِ بصوت عالٍ ، ارفع صوتك كيقوق ، وأخبر شعبى بتعديهم ، وبيت يعقوب بخطاياهم » .

فهل يجد من لم أدنى معرفة بالعربية ، أى شبه بين هذه العبارة من العهد القديم ، وبين الآية القرآنية الأولى :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق » ؟

أو هل فيهم من يلمح أى وجه للتنظير بين سفر أشعيا وآية العلق ؟

ثم ماذا بعد هذا الربط ؟

بعده أن الدكتور هاشم استطرد يتحدث عما « كان يشغل محمداً صلى الله عليه وسلم لسنوات قبل المبعث ، من تفكير في حال قومه : وما كان يحضر في ذهنه دائماً من قصص قدامى الرسل ، للعرب واليهود والمسيحيين ، وكيف جذبوا أتباعهم من الضلال ، فهل يقدر له أن يفعل مثل ذلك ويسلك في صف أولئك الرسل ؟ أو بنص عبارة الدكتور :

Ever present in hids mind, the stories of old prophets among the Arabs, the Jews & the christions ...

من هذه العبارة يتضح وجه الربط بين أول الإصحاح الثامن والخمسين من سفر أشعياء ، وبين آية الوحي الأولى .
ومحمد صلى الله عليه وسلم قد أطال التفكير حقاً قبل المبعث ، في حال قومه وما كانوا عليه من ضلال .

وحقاً كذلك ، جاء القرآن الكريم مصداقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل ، لكن ليس على هذا النحو من شطط التأويل واعتساف الملحظ وتحميل اللفظ القرآني « اقرأ » ما لا يحتمله من صياح وقرع طبول ، لكي يرتبط بصوت كالبوق في آية من سفر أشعياء ، وليس بينهما أي شبه ، لفظاً أو سياقاً .

والقول بأن محمداً صلى الله عليه وسلم « كان يستحضر في ذهنه دائماً قصص الرسل القدامى إلى العرب ويهود والمسيحيين ، ويتساءل : هل يقدر له أن يسلك في صف أولئك الرسل ، يومه أنه صلى الله عليه وسلم تطلع إلى النبوة قبل المبعث ، وهذا ما تنفيه سيرته عندما تلقى الوحي ؛ كما يومه أنه تأثر فيما أبلغ من رسالته بقصص الرسل القدامى ، وهذا أيضاً ما ينفيه القرآن الكريم نفياً صريحاً ، سواء ما كان من هذه القصص مدوناً في كتب الدين السابقة :

« وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذن لارتاب المبطلون » .

وما كان من القصص الأسطورية للأولين : « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا . قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض . . » .

ثم يقول الدكتور هاشم بياناً لتأويله ، ما ترجمته الحرفية :

« وكلمتا "اقرأ ، والقرآن" متجانستان : فالأولى فعل أمر والثانية اسم ، وسواء أكانت القراءة مستعملة إذ ذاك فيما يُعلن جهره أم لم تكن ، فهي هنا الإعلان الشفهي والإذاعة والخطاب أو الموعظة تُنشر شفاهاً (بكلمة فم) . وعلى هذا يكون معنى فعل الأمر اقرأ ، مشخصاً لسياسة الدعوة ومتضمناً خطة تبليغها : فقوم محمد كانوا متفرقين مبعثرين وأمينين ، والكلمة المكتوبة التي خدّمت الدعوات في شعوب أكثر تقدماً ، لا يمكن أن تصل إلى الطبقات الفقيرة والعيبد في المدن ، والبدو الضاريين في الصحارى والواحات والكهوف . وإنما تصل إلى هؤلاء الكلمة المنطوقة وحدها .

« وفي مثل هذه الظروف يكون على الهادي الجديد أن يبلغ رسالته شفويّاً . والكلمات ذات أجنحة ، والذي علمه الله بالقلم للقلّة — من أمم سابقة ، متعلمة — التي تجدى معها قوة القلم ، صار الآن بحيث يذاع وينشر ويوصل إلى الكثرة من الجماهير عن طريق الكلمة المنطوقة وحدها ، بكل ما لها من سحر وسلطان عليهم .

« والراجع أن هذا كان في أصل الديانات القديمة كلها : مزامير داود ، ووصايا زرادشت ، وأناشيد ريج فيدا البرهمية . وكل ما في الأمر أن طبيعة القوم الذين كان على محمد أن ينشر دعوته فيهم ، جعلت مهمته أشق وأصعب . فلقد كانوا أكثر بدائية وأشد انفعالاً وتأثراً بالشعر منهم بالثر المرسل . وبالرغم من كون موضوع الرسالة الجديدة يختلف تماماً عما ألفوه في موضوعات الشعر من حب وحرب ونهب — Plunder — كان من الضروري تبليغها بلغة القوم المنزلة فيهم ، وبمصطلحها في التعبير ، وأسلوبها في البيان ، ليكون لها من قوة التأثير ما تنتشر به انتشار الشمس في الصحراء . . . »

ونسأل : أين هذا كله من كلمة « اقرأ » في دلالتها العربية واستعمالها القرآني ؟

الذي تعرفه لغتنا — لغة القرآن — أن القراءة تلاوة لنص مكتوب أو غير مكتوب . وللمادة دلالات معجمية أخرى ليس بينها ما جاء به الدكتور هاشم في ترجمته وتأويله وتفسيره من صياح وقرع للطبول . . .

فإذا احتكنا إلى القرآن ، نجده استعمل مادة « قرأه » في ستة وثمانين موضعاً ، لا تحتل إطلاقاً ما جاء في هذا التأويل ، بل هي مما يرفضه وينفيه .

ونحن نجاهد منذ سنين ، لنؤصل منهجاً في التفسير لا يجوز أن يقحم على النص القرآني ما لا يحتمله لفظاً وسياًقاً ، ويلزمنا هذا المنهج بألا نفسر لفظاً قرآنيّاً دون استقراء لكل مواضع استعماله في كتابنا المحكم ، لكي نحرر فهمنا لهذا الكتاب الجليل مما في كتب التفسير من مدسوسات إسرائيلية ومقحمات مذهبية وأذواق أعجمية .

وقبل أن نختم مع « الدكتور هاشم أمير » على الأصول المنهجية لتفسير النص القرآني ، نسأل كيف جاز أن يمر كلامه في القرآن الكريم ، على مسمع منا في جلسات المؤتمر ، دون أن نسأله : هل يسمح أى منهج بمثل ما جاء به من تأويلات ، في فهم أى نص من النصوص ؟

ثم نسأل قوماً :

كيف جاز أن ينشر مثل كتاب « قرآن الطالب : The student's Quran » على هذا النطاق الواسع ، ما بين نيودلهي ولندن ونيويورك ، دون أن يفحص ويرد على ما فيه من شطط التأويل !

وكيف لا تُراقب هذه الترجمات القرآنية ، ولو بالقدر الذي يُراقب به ما ينشر فينا من ترجمات وشروح لنصوص من الآداب الغربية ، تجد نقاداً يسهرون على حمايتها من عبث المترجمين وخطأ الشراح وعدوان المتأولين ؟

والقياس مع الفارق البعيد . . .

وليس العهد ببعيد ، من غضبة نقاد الأدب عندنا حين قدم مسرح الأربكية « تاجر البندقية » بنصها المترجم بقلم الشاعر « خليل مطران » كما لم يبعد عهدنا بما أنكر النقاد على « المنفلوطي » من تصديه لترجمة قصص فرنسية ، وهو لم يكن يعرف لغتها .

وتذاكرنا هناك فيما تذاكرنا ، أن الترجمات القرآنية العديدة التي نعرفها ، ليس فيها ترجمة لعربي مسلم !

فالميدان اتسع للمترجمين من مختلف الملل والأجناس فكانوا أحد رجلين :
مسلم غير عربي ، مثل « عبد الحكيم - وميرزا ، ومحمد علي . وغلام سردار ،
وعبد الله علي ، وهاشم أمير علي . . . »

أو غير مسلم ولا عربي . من أمثال « ألكساندر روس ، وجورج سيل ، ورودويل ،
وبالمر ، وريتشارد بل . وأربري . . . »

ولم يظهر في الميدان ثالث . ممن هم أولى به وأقدر عليه : أعني المسلمين من
أصحاب العربية .

فهل كان إحجامنا نحن العرب المسلمين ، لأن في الأفق لغظاً حول ترجمة
معاني القرآن . وقد أفتى بعض الشيوخ بأنها بدعة مستحدثة لم يقل بها السلف
الصالح ؟

أو كان هذا الإحجام ، عن تهيّب وإشفاق من حمل هذه الأمانة الصعبة ؟
إن كانت الأولى ، فالسلف الصالح لم يكونوا في القرون الإسلامية الأولى ،
يواجهون حاجة إلى ترجمة معاني القرآن ، فالشعوب التي دخلت في الإسلام بعد
الفتح الكبرى ، بادرت إلى تعلم لغة العرب كي تفقه كتاب دينها ، لكننا اليوم
نواجه وضعاً شاذّاً من مخلفات الاستعمار الذي فرض لسانه على شعوب مسلمة ،
لغة تعليم وثقافة وأدب ، وذريعة غزو فكري ووجداني ، فلا سبيل لهذه الشعوب
إلى فهم معاني القرآن إلا مترجماً إلى اللغات الأوربية .

وإن كانت الأخرى وأحجمنا عن ترجمة معاني القرآن تهيّباً وإشفاقاً ، فقيم
كان سكوتنا على ما ظهر من ترجمات قرآنية . ولماذا لم نهم بمراجعتها وفحصها لنرى
في أي صورة نقل المترجمون كتاب ديننا ، إلى من تتعذر عليهم قراءته في نصه
الأصيل ؟

إن أقدم ترجمة قرآنية إلى الإنجليزية ، هي فيما أعلم ترجمة « ألكساندر
روس » التي نشرت سنة ١٦٤٩ وأحدث ترجمة هي هذه التي قدمها « هاشم أمير
علي » لخمس عشرة سورة من "جزء عم" وطبعت في نيودلهي ونيويورك ولندن ،
عام ١٩٦١ .

ولا أذكر أنى قرأت أو سمعت عن مقال تصدى ، على ذلك المدى الطويل .
 لترجمة من هذه الترجمات بنقد جاد ، وكأن الأمر لا يتصل بكتابنا الأكبر . فإذا
 لم يعننا أن نراجع الترجمات القرآنية غيرة على الدين وأداء لحق إخواننا المسلمين ممن
 لا يعرفون القرآن إلا في هذه التراجم ، فلتكن القضية قضية النص الأعلى للعربية
 في أنقى أصالتها ومعجز بيانها . نتصدى للدفاع عن حرمة ، كما يفعل زملاؤنا
 المتخصصون في الآداب الغربية ، يفضون للنص منها يمسه في الترجمة تشويه
 أو تحريف .

والقياس مع الفارق البعيد . . .

عند ما التقينا :

هل لى بعد كل هذا الحديث الطويل عن مؤتمر المستشرقين ، فى كلمة أضيفها ،
تكلمة للصورة عنه ، وتحية لما قدمت إلينا الهند فى ختام دورته ؟

لقد كان ختاماً جديراً بهذه الأمة الشرقية العريقة ، ومكماً لما بدأت به
الدورة من نشيد الإنسان الذى رثله « الرئيس رادا كرىشنان » ودعاء السلام الذى
هتف به « الزعيم نهرو » .

وإن تكن تحينى بعيدة فيما يمدو عن موضوع « تراثنا » الذى شغلنا هناك ،
فإنها ليست بعيدة عن روح شرقنا ، صاحب هذا التراث .

ولعلى حين أتجه بالتحية إلى « تاج محل » أحاول أن ألفت إلى ما بين الآثار
والتراث من صلة وثيقة ، إذ يعبران معاً عن روح الأمة ومزاجها .

* * *

فى المؤتمرات الدولية ، تحرص الدولة الداعية على أن يشاهد ضيوفها نموذجاً
يمثل حضارتها ويعبر عن شخصيتها .

وقد اختارت الهند أن تدعو ضيوفها المستشرقين إلى منطقة « أجرا وفاتح
بورسيكرى » ليروا ما بها من آثار تعبر عن روح الشرق ، إيضاحاً وتكملة لما أعطاهم
تراثه الفكرى .

والرحلة من نيودلهى إلى أجرا طويلة تستغرق يومين كاملين ، مشحونين ببرنامج
حافل . وقد توقع كثير منا أن تجهدهم الرحلة بعد العمل الشاق فى أيام المؤتمر
وكرهوا مع ذلك أن تفوتهم الفرصة ؛ فلبوا الدعوة وهم مشفقون من مشقتها .

لكن الهند استطاعت بالتنظيم الدقيق والضيافة الكريمة والاستعداد الممتاز ،
أن تجعل منها رحلة ممتعة مثيرة ، توغت بنا فى صميم روح الشرق ، ونقلتنا شبه
مسحّرين إلى دنيا العجائب .

وكل الآثار فى منطقته « أجرا وفاتح بورسيكرى » إسلامية . .

وتاريخها يرجع إلى العصر المغولي ، وهو يلتقي زمنياً مع أواخر العصور الأوربية الوسطى .

وإسلامية هذه الآثار ، ترمز إلى الطابع الديني المميز لحضارة هذا الشرق ، مهد العقائد والأديان ، ومنزل الرسالات الروحية من قديم الحقب والآباد .

وعظمتها المادية ، ترمز إلى المرحلة التي كان الشرق فيها مركز الحضارة قبل أن تعبر إلى الغرب .

وجماها العبقري ، يرمز إلى سر الروح ، يسرى في الأثر الجامد الأصم ، فينبض بالحياة ويتوهج بجمرة العاطفة ودقها .

• • •

ولا حتى في أن أطيل الاستطراد فأتحدث عما شاهدت هناك من عجائب آثار المنطقة ونحن ننتقل من قلعة أجرا إلى تاج محل وسيكاندرا . ومن بوابة النصر في « بولاند داروزه » إلى مسجد « الشيخ سليم شيبتي » وقصر فاتح بورسيكري .

وإنما يكفي أن أقف عند « تاج محل » أعجوبة الدنيا ، لا لأصف روعة صرحه الشامخ وعبقرية هندسته ، ولا لأنقل ما سمعت من تفاصيل البناء ومواده وأبعاده ونفقاته وعدد مهندسيه وألوف العمال الذين تفرغوا لتشييده على مدى سبعة عشر عاماً

فالواقع أنني كنت ألتقي ظاهراً سمعياً إلى ما كان الدليل يذكره لنا من كل ذلك وأنا مشغولة البال عنه ، في تأمل مستغرق يشدني بعيداً عن الزملاء الذين أمسكوا بأقلامهم ومفكراتهم ، وراحوا يدونون في حرص وتتبع ، ما يعلى الدليل من شروح وأرقام . . .

كنت بينهم حاضرة غائبة :

أصغى إلى إحياء هذا الصرح العجيب ، ينقلني عبر مئات السنين إلى مسرح الأحداث لقصة حب خالد قهر الزمان وتحدى القناء وفرض سلطانه على التاريخ .

وتراءت لي أطراف أبطالها الثلاثة الذين رحلوا عن الدنيا وبليت منهم الأجساد .

وبقيت ذكرى الحب الذى خاض معركته مع شهوة السلطان وجبروت المادة ،
وانتصر عليهما .

انتصر على قوى المادة التى تسحق عواطف الإنسان .

كما انتصر على الزمان الذى يلتقى بالماضى فى مآهة النسيان ، وعلى الموت الذى
يُسلم أجسادهم إلى البلى والفتناء . .

وتراءت لى أطيافهم تنهذى فى نشوة الحب ، ثم متمد إليها يد النوى فتمزق
الشملى ، وتلقى بهم فى مهيب إعصار جانح يستنفد كل طاقتهم المادية ، ولا يبقى
منهم سوى وهج الروح وذكرى حب أبلى منتصر .

وعشت قصتهم بكل وجدانى ، وكأن لم تكرر عليهم الأيام والليالى ، ولم ينسج
الزمان بينى وبينهم حجاباً كثيفاً مداه أربعمائة عام !

عشتها منذ جاءت إلى قصر أجرا ، الشابة « البيجوم بانوا ، بنت الوزير يمين
الدولة » عروساً رائعة الجمال باهرة الحسن ندية الصبا ، فى ربيعها التاسع عشر ،
لتزف إلى ابن عمها الامبراطورة نورجيهان : « الأمير خوارم ولى عهد الامبراطور
جاهانجير » وحفيد السلطان « أكبر » مؤسس الدولة المغولية بالهند .

ومنحها الامبراطور لقب « ممتاز محل » وعاشت ستة عشر عاماً مع زوجها
الأمير ، ينهلان من نبع الحب الصافى ، لا تعكره مسؤوليات الحكم ولا تثقله
أعباء التاج .

حتى مات الامبراطور الأب « جاهانجير » فى لاهور سنة ١٦٢٧ ، وفى العام
التالى أقيم حفل التتويج فى قصر قلعة أجرا ، واعتلى الأمير خوارم العرش باسم
« الامبراطور شاه جاهان » ، وزوجته الحبيبة « ممتاز محل » إلى جانبه تحرسه وترعاه
وتشاركه أعباء منصبه : حاملةً لخاتم الدولة ومستشارة أولى لشؤونها .

ولا أحد يذكر ، أكان حبها النادر لزوجها هو الذى أغراها بحب رعيته من
أجله ؟ أم كان قلبها الكبير قد اتسع لحب الزوج والشعب ؟

كل الذى يذكرونه أنها أمضت عاماً على العرش ، ملء القلوب محبة وإجلالاً ،

وقد استطاعت أن تلتطف بجمها من ضراوة السلطان ، وأن تجمع قلوب الشعب حول زوجها الامبراطور ، بجاذبيتها الآسرة ، ولطف شمائلها ، وتصديها لحماية المظلومين ورعاية البؤساء .

عاماً واحداً فحسب ، ماتت بعده .

وقدمت حياتها هبة للحب .

صحبت زوجها الامبراطور ، وهي مثقلة بالحمل ، حين توجه لإخماد ثورة حاكم لإحدى المقاطعات . وهناك في مدينة « بور هاربر » بالهند الوسطى ، اغتالها الموت وهي تضع وليدها « جوهرة » .

ومن قبل جوهرة ، كانت ممتاز محل قد ولدت ثمانية بنين وخمس بنات ، اختطف الموت سبعة منهم في حياتها ، ولكنه عجز عن أن يحرق بنار الشكل ، ذخيرة حبها !

وأودع الملك المحزون جثمانها قبر « أمانة » بجداق زندا باد .

ثم عاد بعد ستة أشهر فحمل رفاتاها إلى مدفن مؤقت في « أجرا » كى يأنس بقربها ريثما يبنى لها « تاج محل » .

وعبث به الحزن فرفض أن يتقبل في فقيدته أى عزاء ، وانصرف عن شئون الدولة ، وأعلن الحداد العام في كل أنحاء البلاد ، فحظر استعمال العطور ولبس الحلى وارتداء الثياب الزاهية .

ومضت تسع سنين دأبا ، تم خلالها تشييد المدفن في تاج محل ، ونُقل رفات الحبيبة إلى مثواها الأخير .

وواصل ألوف العمال عملهم ، ثمانى سنين أخرى ، لإتمام الصرح العجيب . وشحنات المرمر الأبيض تُحمل من جابور ، والجواهر والأحجار الثمينة تجلب من بقاع الهند وفارس وعبر جبال همالايا ، وخزانة الدولة مفتوحة ، تجبي إليها ملايين الروبيات لتتدفق سيلاً يصب في تاج محل !

والملك سادر في حزنه ، لم يعد يعتيه من الدنيا إلا أن يتم تشييد البناء ، ثم يرقد إلى جوار الحبيبة الراحلة .

وطالت سنوات الانتظار وهو يمضي ليلاليه الطوال أشبه بروح هائمة ، تطيف
بمشوى الرائدة الغالية ، وتتجول هائمة في حديقة التاج ، حيث حفرت بحيرة تحف بها
أشجار الحور الحزينة ، يصغى الملك إلى نواحها كلما هبت ريح ، ويحدق في
مياه البحيرة وهي تبدو لعينيه بجرأ من دموع . . .

وقد تم تشييد صرح تاج محل عام ١٦٤٨ . وأن لشاه جاهان أن يعود إلى
شواغل الدولة . ولكنه لم يعد ينتمى إلى هذه الدنيا منذ رحلت عنها « ممتاز محل » .
بل لم يعد يعنيه أن ينفذ صبر ابنه « أورانجزب » فيشب على العرش بعد عشر
سنوات . ويسجنه في قاعة ضيقة بقلعة أجرا .

كل ما عناه أن يجد في جدار محبسه كوة صغيرة يطل منها على مرقد « ممتاز
محل » وأن يخلو في وحدته إلى طيفها ، يناجيا حتى يحين اللقاء .

وقد حان اللقاء بعد سبع سنين ، فأضجعه ولده الامبراطور أورانجزب
إلى جوار « ممتاز محل » في المشوى الذى ظل على مر السنين وتتابع القرون ، مزاراً
للأحياء من كل جنس وملة ..

يشهدون أعجب صرح شيده الحب ، ويحنون رعوهم خاشعين أمام مغزى
الرمز وإيجاء الذكرى .

ويستردون إيمانهم بسير الحياة . .

ويحيون لحظة في معبد الحب ومجلى الروح ، قبل أن تشدهم الدنيا بأثقالها ،
وتلفهم دوامة الوجود المادى بدوارها العنيف وهديرها الصاخب .

وهناك التمتينا !

نحن الذين جئنا من شتى بقاع الأرض ، جمعاً مختلفاً متفاوت الأزياء
والألوان ، مختلف الملامح والسمات ، متغاير المذاهب والعقائد .

بعد ثمانية أيام قضيناها في المؤتمر ، لم نستطع خلالها أن ننسى لحظة أننا
نتنسى إلى شرق أو غرب ، وأننا منا المسلمون ومنا المسيحيون والبوذيون ومن لا دين لهم .

ولا أفلحنا في تجاهل ما بيننا من فوارق وفواصل .

حتى التقينا في المعبد
فتاحت الفواصل وارتفعت الحواجز
بنفثة سحرٍ من روح الشرق .

تجاول عن جوهر الإنسان فينا، ما تراكم فوقه من أحقاد التفرقة وأثقال المملّك
وأعباء الصراع وكثافة المادة .

وتسرى في كياننا روحاً علوية متألقة بنور الإيمان وحرارة الحب .

كما سرت في المرمر الأصم والهيكل المادى للصرح الشامخ ، فبشت فيه معنى
الوجود وسر الحياة .

وفي رهبة الصمت الخاشع ، تناهى إلى مسمعى من بعيد ، صدئى من دعاء
« الرئيس رادا كريشنان » يوم افتتاح المؤتمر :

«تقابلوا معاً ، وتحادثوا معاً
لعل عقولكم تلتقى . .

في تفاهم وقربى

ولتكن أفكاركم وعواطفكم وأمانى قلوبكم

نابعة من ضمير الإنسان

ومتجهة إلى الحب والخير

وعلى الطريق سيروا معاً

نحو وحدة البشر»

فهل كان هذا اللقاء بين الجمع الحاشد المختلط مقصوداً لذاته من رحلة أجرا
التي ختمت بها برنامج المؤتمر دورته السادسة والعشرين ؟

مهما تكن جدوى هذه التجربة . في استجابتنا لدعاء الإنسان ، فإن الرحلة
قد حققت هدفها العلمى . حين قدمت لنا من روح الشرق وملامح شخصيته في
آثاره المادية . ما يؤكد ويوضح ويكبدل ذلك الذى أعطاه تراثه الفكرى والروحى
والأدبى .